

المجتمعات العربية وعلاقتها النفسية والاجتماعية بلغتها في الميزان:

المغرب العربي مثالا بعيون مفاهيمنا المستحدثة

تأليف:

أ. د. محمود الذوادي



هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

المحاضرات (٦)

المجتمعات العربية وعلاقتها النفسية والاجتماعية بلغتها في الميزان: المغرب العربي مثالا بعيون مفاهيمنا المستحدثة

الأستاذ الدكتور محمود الذوادي

هذا الكتاب :

يدرس هذا البحث اللغة على أكثر من مستوى: اللغة كغريزة في الطبيعة البشرية وكأم للرموز الثقافية عند الإنسان وكعلامة رمزية على إنسانية الإنسان. وبناء على هذا الطرح الفكري لظاهرة اللغة، ننظر إلى **حال اللغة العربية غير المرضي** في مجتمعات المغرب العربي كنموذج تتشابه معه قليلا أو كثيرا بقية المجتمعات العربية في المشرق والخليج العربيين.نعتقد أن التركيز على وضع اللغة العربية في بلاد المغرب العربي مفيد على مستويين : طرح تشخيص جديد بالمعطيات المعيقة لتمتع اللغة العربية بوضع طبيعي بين أهلها وذويها في المجتمعات المغاربية ثم لفت نظر الباحثين والسلطات في مراكز الدفاع عن اللغة العربية بأن إصلاح شأن اللغة العربية في تلك المجتمعات يتطلب أخذ خصوصياتها بعين الاعتبار. لذا يعرّف البحث **بعدة مفاهيم** توصلنا إلى ابتكارها من دراساتنا للثنائية اللغوية (العربية والفرنسية) في المجتمع التونسي والجزائري والمغربي. تركز أقسام البحث على **الجوانب النفسية والاجتماعية والثقافية للسلوكيات اللغوية** لأفراد هذه المجتمعات والمتمثلة في المزج اللغوي المنتشر بين العربية والفرنسية في الحديث والكتابة لدى أغلبية سكان هذه الشعوب. يفيد التحليل أن وراء الرغبة في المزج اللغوي موقفا جماعيا لدى المازجات والمازجين يتجلى في النظر إلى اللغة العربية بشيء من الدونية وبرؤية تمجيدية للغة الفرنسية/ الأجنبية، وهو الاتجاه السائد الماثل الذي نجده لدى كثير من المواطنين والمواطنات في الخليج والمشرق العربيين نحو اللغة الانجليزية.

أ.د. محمود الذوادي

المملكة العربية السعودية – الرياض

مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية

ص.ب ١٢٥٠٠ الرياض ١١٤٧٣

هاتف: ٩٦٦١١٢٥٨١٠٨٢+ ٩٦٦١١٢٥٨٧٢٦٨+

البريد الإليكتروني: nashr@kaica.org.sa

www.kaica.org.sa



ردمك: ٦ - ٠ - ٩٠٦٧٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

المحاضرات (٦)

المجتمعات العربية وعلاقتها النفسية والاجتماعية بلغتها في الميزان:

المغرب العربي مثالا بعيون مفاهيمنا المستحدثة

الأستاذ الدكتور محمود الذوادي

عالم الاجتماع - جامعة تونس - أستاذ زائر بجامعة الإمام - الرياض



الطبعة الأولى
الرياض
١٤٣٦ هـ - ٢٠١٥م

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

© مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، ١٤٣٦ هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

الذوادي، محمود

المجتمعات العربية وعلاقتها النفسية والإجتماعية بلغتها في الميزان:
المغرب العربي مثالاً بعيون مفاهيمنا المستحدثة. /محمود الذوادي.- الرياض، ١٤٣٦ هـ

٤٤ ص؛ ١٧ × ٢٤ سم

ردمك: ٦ - ٠ - ٩٠٦٧٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

١- اللغة العربية - دفع مطاعن ٢- التغريب أ. العنوان

ديوي ٤١٠ ١٤٣٦/٥٣٨٤

رقم الإيداع: ١٤٣٦/٥٣٨٤

ردمك: ٦ - ٠ - ٩٠٦٧٣ - ٦٠٣ - ٩٧٨

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً



هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

كلمة المركز

انطلاقا من اهتمام مركز الملك عبدالله بن عبدالعزيز الدولي لخدمة اللغة العربية، بدراسة أوضاع اللغة العربية وأحوالها، وتحقيقا للأهداف التي يتبناها المركز، وحرصا منه على تنويع مناشطه وفعالياته والشرائح المستهدفة، فقد أقر مجلس الأمناء في المركز برنامجا علميا تحت اسم: (برنامج المحاضرات العلمية) تُقَدّم من خلاله، محاضرات نوعية ومتميزة، وذلك باستقطاب علماء ومتخصصين في اللغة العربية أو في دراستها بعيون العلوم الاجتماعية والإنسانية من العرب وغيرهم.

ويهدف المركز من خلال برنامج المحاضرات العلمية إلى تسليط الضوء على موضوعات لغوية مختارة، وعلى قضايا وإشكالات تمس الهوية اللغوية العربية، ومعالجتها بطرح علمي معاصر، للخروج بمشروعات علمية متنوعة تساهم في خدمة اللغة العربية، وتعزيز مكانتها بين اللغات.

ويعقد المركز برنامج المحاضرات في أماكن متفرقة، يدعى إليها المتخصصون في اللغة، والباحثون والمهتمون، وطلاب الدراسات العليا، ويتضمن البرنامج إلى جانب المحاضرة حلقة نقاش متخصصة في اهتمام المحاضِر، ومسيرته العلمية، والآفاق البحثية التي أرادها، والتي يوصي بارتيادها.

ويسرنا أن نضع بين أيديكم نص المحاضرة التي قدمها سعادة الأستاذ الدكتور محمود الذوادي بعنوان: «المجتمعات العربية وعلاقتها النفسية والاجتماعية بلغتها في الميزان: المغرب العربي مثالا بعيون مفاهيمنا المستحدثة»، واثقين بأنكم ستجدون فيها وفرا علميا، ومفاتيح لمشروعات علمية وعملية.

الأمانة العامة

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

ملخــــص :

يدرس هذا البحث اللغة على أكثر من مستوى: اللغة كغريزة في الطبيعة البشرية وكأم للرموز الثقافية عند الإنسان وكعلامة رمزية على إنسانية الإنسان.وبناء على هذا الطرح الفكري لظاهرة اللغة، ننظر إلى **حال اللغة العربية غير المرضي** في مجتمعات المغرب العربي كنموذج تتشابه معه قليلا أو كثيرا بقية المجتمعات العربية في المشرق والخليج العربيين٠نعتقد أن التركيز على وضع اللغة العربية في بلاد المغرب العربي مفيد على مستويين : طرح تشخيص جديد بالمعطيات المعيقة لتمتع اللغة العربية بوضع طبيعي بين أهلها وذويها في المجتمعات المغاربية ثم لفت نظر الباحثين والسلطات في مراكز الدفاع عن اللغة العربية بأن إصلاح شأن اللغة العربية في تلك المجتمعات يتطلب أخذ خصوصياتها بعين الاعتبار. لذا يعرّف البحث **بعدة مفاهيم** توصلنا إلى ابتكارها من دراساتنا للثنائية اللغوية (العربية والفرنسية) في المجتمع التونسي والجزائري والمغربي. تركز أقسام البحث على **الجوانب النفسية والاجتماعية والثقافية للسلوكيات اللغوية** لأفراد هذه المجتمعات والمتمثلة في المزج اللغوي المنتشر بين العربية والفرنسية في الحديث والكتابة لدى أغلبية سكان هذه الشعوب. يفيد التحليل أن وراء الرغبة في المزج اللغوي موقفا جماعيا لدى المازجات والمازجين يتجلى في النظر إلى اللغة العربية بشيء من الدونية وبرؤية تمجيدية للغة الفرنسية/الأجنبية، وهو الاتجاه السائد المماثل الذي نجده لدى كثير من المواطنين والمواطنات في الخليج والمشرق العربيين نحو اللغة الانجليزية.

المصطلحات الأساسية:

اللغة أم الرموز الثقافية، التخلف الآخر، التعريب النفسي، الثنائية اللغوية الأمارة، الغصة اللغوية، الشعور بمركب النقص، المفاهيم.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

موضوع البحث في الصميم:

تطمح صفحاتُ هذا البحث إلى تقديم وصف شامل لحال اللغة العربية في مجتمعات مغاربية ثلاثة وهي تونس والجزائر والمغرب. وتعني عبارة «حال اللغة العربية» في هذه الدراسة **العلاقات النفسية والاجتماعية** التي تسود بين اللغة العربية كلغة وطنية ومواطني تلك المجتمعات. ومن ثمّ ، لا نهتم هنا بالتعرّف على درجة إتقان التونسيين والجزائريين والمغاربة لقواعد النحو والصرف والإملاء في لغة الضاد. بل نتبنى هنا منظور علم النفس الاجتماعي لتشخيص وتحليل طبيعة تلك العلاقة النفسية الاجتماعية التي تربط سكان المجتمعات الثلاثة باللغة العربية اللغة الرسمية الأولى فيها جميعا ، من ناحية ، ومكانة تلك اللغة في المؤسسات التعليمية والاقتصادية والاجتماعية والإدارية في هذه المجتمعات قبل الربيع العربي وبعده ، من ناحية ثانية. نرى أن موضوع هذا البحث **شبه غائب** في ما يصدر عن تقارير الندوات والمؤتمرات وفي ما تتضمنه الكتبُ و الدراسات في العالم العربي حول وضع اللغة العربية (لننهض بلغتنا ٢٠١٣). إذ طالما تقتصر تلك المنشورات على ذكر ضُعف مستوى المواطنين العرب في معرفة قواعد النحو والصرف والتعبير في اللغة العربية الأمر الذي جعل بعض المؤتمرات الأخيرة حول لغة الضاد تطلق صيحات فزع على حالتها المتردية في المجتمعات العربية[1]. فمجرد تشخيص الضعف في تلك المعالم **غيرُ كاف** لفهم وإصلاح أمر اللغة العربية في مجتمعاتها. إذ اللغة ظاهرة اجتماعية نفسية في الصميم كما سيتجلى في مقولة هذا البحث. وعليه، فتقويم وضع لغة الضاد في الوطن العربي يتطلب إقامة علاقة اجتماعية ونفسية سليمة معها **خاصة في مجتمعات المغرب العربي** تساعد على الاعتزاز بها والدفاع عنها واستعمالها شفويا وكتابة في كل المجالات في مجتمعات الوطن العربي من الخليج إلى

(١) «مؤتمر اللغة العربية في خطر: الجميع شركاء في حمايتها»، دبي ٧-١٠ مايو ٢٠١٣ المستقبل العربي، العدد ٤١٥ / سبتمبر ٢٠١٣ ص ١٨٥ -١٨٩.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

المحيط. نبدأ موضوع هذا البحث من خلال إطار فكري نظري ثم نقدم لاحقا معطيات ميدانية من السلوكيات اللغوية للتونسيين والجزائريين والمغاربة. إذن ، لنطرح الآن معالم الإطار الفكري النظري من خلال ما يقوله **البحث الأساسي** حول ظاهرة اللغة لدى الإنسان.

ظاهرة اللغة في البحث الأساسي

يحظى موضوعُ اللغة في البحث الأساسي باهتمام كبير بين الباحثين. .يهتم البحث الأساسي بالتعمق في فهم جوهر الأشياء لا هوامشها. فقد ذهب عالم النفس بنكر Pinker إلى القول بأن اللغة هي غريزة في الإنسان مثلها مثل قدرة الإنسان الغريزية على المشي.أي أنها شيء فطري ومبرمج بعمق في الطبيعة البشرية (Pinker 1995 :15-25) . وهذا ما يفسر نجاح كل الأطفال بكل سهولة على استعمال وحذق اللغات. فلو لم تكن المقدرة اللغوية أمرا غريزيا مبرمجا في عمق صميم الطبيعة البشرية لفشل عدد غير قليل من الأطفال في تعلم اللغة كما يفشلون في تعلم القراءة ، مثلا. وبعبارة أخرى ، فالقدرة على استعمال اللغة مسألة ديمقراطية متاحة لكل الناس في الظروف العادية ولا يُحرم منها إلا نزر قليل من الناس لأسباب خلقية أو عارضة في حياتهم. إن حرمان هؤلاء من استعمال اللغة لا يؤدي بالضرورة إلى عجزهم على امتلاك ،بدرجات مختلفة ، بقية عناصر المنظومة الثقافية كالتفكير وممارسة العلم والمعرفة والتدين والتأثر بقيم وتقاليد المجتمع. تمثل ملكة اللغة ، هذه الغريزة البشرية ، مخزونا مركزيا وأساسيا في طبيعة الإنسان. ولهذا المخزون وجهان: ١. استعمال اللغة المنطوقة والمكتوبة و٢. الاستعداد والقدرة على استعمال بقية مكونات ما نسميه منظومة الرموز الثقافية (اللغة والفكر والدين والمعرفة والعلم والأساطير والقوانين والقيم والأعراف الثقافية ..). إن حضور الوجهين للملكة اللغوية هو بالطبع الوضع المثالي لتمكين أفراد الجنس البشري من كامل تمتعهم بما هو

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

موجود في هذا العالم ، ومن ثم التأهل الكامل للعب دور السيادة / الخلافة فيه (الذوادي ٢٠١٢ ، ٢٠١٠ ، ٢٠٠٦).

يرى العالمان نوبل W.Noble وديفدسن I.Davidson أن اللغة هي أداة التفكير الرمزي عند الإنسان. فهي التي تمكنه من صياغة المفاهيم والأفكار ونشرها بين الآخرين. ففي نظرهما وقع الانفجار الثقافي الكبير The Big Cultural Explosion في دنيا الإنسان بواسطة اللغة. فبها استطاع بنو البشر أن يبتكروا الفن والتقنيات الجديدة للتعامل مع محيطهم (Davidson, Noble 1989) . وهكذا تتجلى مركزية اللغة بوجهيها في تشكيل هوية الإنسان هذا الكائن الفريد الرموزي الثقافي على أديم هذه الأرض. ومن هنا، تأتي مشروعية القول بأن اللغة هي المصدر الذي لا ينضب في قدرته على مد الكائن البشري وحده بتاج صفة الإنسانية على مر العصور. وهو ما يدعو الشعوب إلى الاعتزاز بلغاتها دون استثناء.

يقارن الباحث عبد المجيد الفرق الكبير بين لغة الإشارة واللغة المنطوقة في مجاليِّ التعبير وتوليد الأفكار ، فيقول : «وإذا توسعنا في استعمال كلمة «لغة» صح القول بأن لغة الإشارة وسيلة أيضا للتعبير. بل إن لغة الكلام مازالت تستعين بلغة الإشارة ليكون التعبير أقوى وأوضح. غير أن لغة الإشارة أضيق وأعجز من أن تعبر عن كل أفكارنا و وجداننا....فكلما كانت الأفكار تتناول أشياء معنوية كانت لغة الكلام أقدر على أدائها» (عبد المجيد ١٩٦١: ٣٧). ويضيف عبد المجيد شرحا آخر لبيان العلاقة الوثيقة بين اللغة والتفكير عند الإنسان : «والأفكار لا تنمو إلا في مجتمع ، والإنسان يحتاج إلى الوسيلة التي ينقل بها إلى المجتمع هذه الأفكار النامية ، ولا بد أن يقابل نمو الأفكار نمو في اللغة «كلمات وأساليب» حتى يتم هذا النقل ، فالصلة إذن قوية بين الفكر واللغة. وقد قال أحدُ العلماء : إن الحيوانات لا تتكلم ، لا لأنها لا تستطيع الكلام، ولكن لأنه ليس

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

لديها ما تتكلم عنه ، فنمو التصورات والأخيلة والأفكار يقابله نمو أيضا في اللغة المعبِّرة» (عبد المجيد ١٩٦١: ٣٩).

وتأتي مقولة عالم اللسانيات الأمريكي المشهور نوام شومسكي Noam Chomsky بخصوص تعلم الطفل للغة لتعزز مبدأ الرجوع إلى الأساسيات Basics كإطار منهجي لعدد متزايد للعلماء والباحثين المحدثين (Chomsky, 1975) . فدراسات شومسكي وأتباعه لظاهرة تعلم الطفل للغة واستعماله لها أدت بهم إلى تسجيل ملاحظتين رئيسيتين في هذا المضمار:

١. يتعلم الأطفال مفردات وقواعد اللغة الأساسية مع بلوغهم سن الرابعة بسرعة تفوق سرعة تعلمهم لما سماه شومسكي وأتباعه للمهارات الذهنية والفكرية الأخرى other intellectual abilities، ومن ثم جاء تأكيدهم على أن البشر يولدون بمقدرات واستعدادات فطرية ضخمة لتعلم اللغة.

٢. لاحظ شومسكي ومواليه أن قواعد اللغة تسمح للطفل بأن يستعمل ، بطرق تكاد تكون غير محدودة ، أنواعا مختلفة من التركيبات الكلامية والجمل التي لم يسمعها أبدا من قبل . فتعامل الطفل مع اللغة يتصف ، إذن ، بملامح الابتكار creative aspects، وهو تحليل يضع علماء النفس السلوكيين the Behaviorists أمام صعوبات جمة إزاء تفسير ظاهرة التجديد في استعمال اللغة عند الطفل وفقا لأدوات السلوكيين في تفسير السلوك والمتمثلة في الاستجابة المباشرة وعملية التعزيز (التدعيم) reinforcement والدراية الارتجاعية feedback من المحيط الخارجي.

إن ما جاء في (١) و(٢) يشير إلى أن الأطفال يولدون في هذا العالم وهم يحملون استعدادات لغوية فطرية تتحدى مؤثرات البيئة. ففي حديثهم لا يقلدون حرفيا دائما نمط تركيبة الكلام الذي يسمعونه، بل هم يبادرون إلى صياغة جمل ونظام كلامهم بطريقتهم الخاصة. أي أن حديثهم ليس من حيث

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

تركيبته اللغوية اجترارا روتينيا لكلام سمعوه في الأسرة والحي والمجتمع ككل. وبعبارة أخرى، فإن شومسكي وأصحابه يطرحون مفهوم ما يمكن أن نطلق عليه بالطبيعة البشرية اللغوية التي يفوق تأثيرها ويتحدى أحيانا في اللغة تأثير البيئة على الطفل.

كان يمكن الإطناب في الأمثلة السابقة للتدليل على أن سلوك الإنسان بصفة عامة يتأثر كثيرا بمؤثرات خلقية فطرية. وبالتالي ، تكون هذه المؤثرات في نهاية الأمر في صلب الطبيعة البشرية. فهذه الأخيرة هي مجموعة من الاستعدادات والمقدرات الثابتة التي تتميز بها طبيعة الإنسان وفي طليعتها المهارات اللغوية. إنها تلك الثوابت التي يشترك فيها بنو البشر بصرف النظر عن لون بشرتهم ومكان إقامتهم على خريطة الكرة الأرضية و بغض النظر عن محيطهم الاجتماعي والثقافي.

اللغة ونشأة الثقافة في المجتمع البشري

وعند التساؤل عن أهم عنصر في منظومة الرموز الثقافية المشار إليها الذي يقف وراء ميلاد هذه المنظومة المميزة للجنس البشري ، فإن اللغة البشرية المكتوبة والمنطوقة تكون هي وحدها المؤهلة لبروز منظومة الرموز الثقافية. فلا يمكن تخيل وجود بقية عناصر الرموز الثقافية كالدين والعلم و الفكر دون حضور اللغة البشرية المنطوقة على الأقل. ومن ثم، جاءت مشروعية اعتبارنا **أن اللغة هي أم الرموز الثقافية جميعا**. ونظرا لمركزية اللغة المنطوقة والمكتوبة في نشأة منظومة الرموز الثقافية بتعبير علميّ الأنثروبولجيا و الاجتماع على الخصوص، فإن وصف الإنسان بأنه حيوان ناطق وصف مشروع جدا لأن أ كثر ما يميز الجنس البشري عن بقية الأجناس الأخرى ويعطيه السيادة عليها بواسطة منظومة الرموز الثقافية هي اللغة المنطوقة والمكتوبة.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

صمتُ أشهر تعريف عن اللغة

ورغم مركزية اللغة في هوية الإنسان وبالتالي في بروز منظومة الرموز الثقافية في الجماعات والمجتمعات البشرية ، فإن أشهر تعريف لمفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية الغربية المعاصرة لا يذكر اللغة كعنصر مركزي وأساسي في منظومة الثقافة . فقد عرّف عالم الأنثروبولوجيا البريطاني إدوارد برنارد تيلور (١٨٧١) الثقافة Culture بأنها: «ذلك الكل المعقد الذي يتضمن المعرفة والعقيدة والفن والأخلاق والتقليد وأي مقدرات وعادات يكتسبها الإنسان كعضو في المجتمع ». يتمثل قصورُ هذا التعريف الكلاسيكي للثقافة في كونه لا يشير إلى اللغة ولا يعطيها الصدارة في مكونات منظومة الثقافة أو الرموز الثقافية و الحال أن اللغة هي منشئة

لظاهرة الثقافة/الرموز الثقافية نفسها، كما بينا. أي أن العلاقة بين اللغة ومنظومة ثقافتها هي علاقة عضوية لدى بني البشر. و من ثم يتضح قصور تعريف مفهوم الثقافة الذي لا يتضمن بكل وضوح صدارة اللغة في تعريف مفهوم الثقافة البشرية (White 1973).

مكانة اللغة في نظرية الرموز الثقافية

ولتشخيص مركزية اللغة بأكثر دقة في هوية الإنسان ، نقدم معالم نظريتنا للرموز الثقافية.

ترى نظريتنا للرموز الثقافية أن **الإنسان كائن لغوي ثقافي بالطبع**. وهي نظرية تستند على ملاحظات فكرية وبحثية شخصية جديدة حول خمسة معالم ينفرد بها الجنس البشري عن غيره من عالم الحيوانات ، مثلا:

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

١. يتصف النمو الجسمي (البيولوجي الفيزيولوجي) لأفراد الجنس البشري **ببطء شديد** مقارنة بسرعة النمو الجسدي الذي نجده عند بقية الحيوانات.

٢. يتمتع أفراد الجنس البشري بأمد حياة(سن) **أطول** من عمر معظم الحيوانات.

٣. ينفرد الجنس البشري بلعب **دور السيادة / الخلافة** في هذا العالم دون منافسة ذات قيمة له من طرف كل الأجناس الأخرى.

٤. يتميّز الجنس البشري بطريقة فاصلة و حاسمة عن الأجناس الأخرى **بمنظومة الرموز الثقافية**.

٥. يختص أفراد الجنس البشري **بهوية مزدوجة** تتكوّن من الجانب الجسدي/البيولوجي الفيزيولوجي، من ناحية، والجانب الرموزي الثقافي المشار إليه في ٤، من ناحية ثانية.

والسؤال البحثي والفكري المشروع بهذا الصدد هو: **أولا** هل من علاقة بين تلك المعالم الخمسة التي يتميّز بها الإنسان ؟ **وثانيا**: هل أن الرموز الثقافية تؤثر تأثيرا حاسما في المعالم الأربعة الأخرى ؟

هناك علاقة مباشرة بين المعلمين ١ و ٢. إذ أن النمو الجسمي البطيء عند أفراد الجنس البشري يؤدي بالضرورة إلى حاجتهم إلى معدل سِنّ أطول يمكنهم من تحقيق مراحل النمو والنضج المختلفة والمتعددة المستويات. أما الهوية المزدوجة التي يتصف بها الإنسان فإنها أيضا ذات علاقة مباشرة بالعنصر الجسدي (المعلم ١) للإنسان ، من جهة ، والعنصر الرموزي الثقافي (المعلم ٤)، من جهة أخرى.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

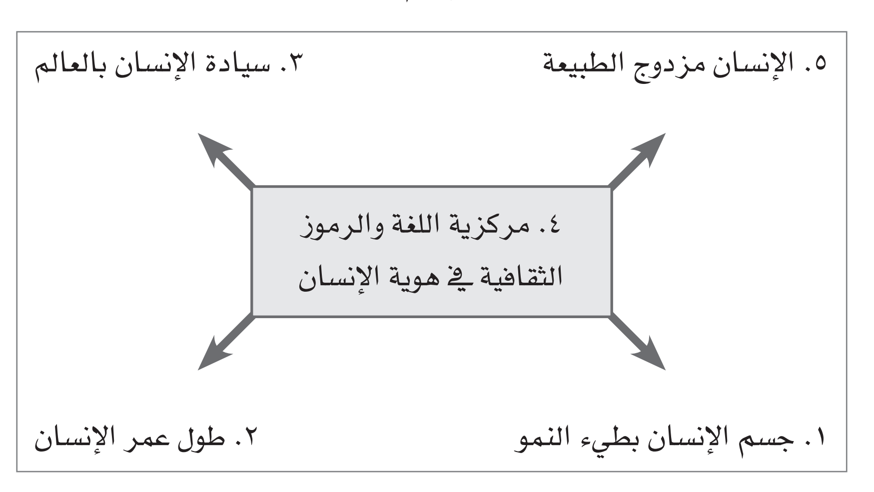
أما سيادة الجنس البشري فهي **ذات علاقة قوية** ومباشرة بالمعلمين ٥ و٤: الهوية المزدوجة والرموز الثقافية. والعنصر المشترك بين هذين المعلمين هو **منظومة الرموز الثقافية**. وهكذا يتجلى **الدور المركزي** والحاسم لمنظومة الرموز الثقافية في تمكين الإنسان وحده من السيادة / الخلافة في هذا العالم. وكما أكدنا من قبل ، فاللغة هي أم الرموز الثقافية جميعا، وبالتالي فهي مصدر تمكين الجنس البشري من شرف السيادة على بقية الأجناس الأخرى. ومن ثم ، تأتي مشروعية تأهل **الإنسان** ليكون **كائنا لغويا ثقافيا بالطبع**.

مقدرة نظريتنا على التفسير

إن الرموز الثقافية تسمح بتفسير المعلمين ١ و ٢. فالنمو الجسمي البطيء عند الإنسان يمكن إرجاعه إلى كون أن عملية النمو الشاملة عنده تشمل **جبهتين**: الجبهة الجسمية والجبهة الرموزية الثقافية. وهذا خلافا للنمو الجسدي السريع عند الحيوانات بسبب فقدانها لمنظومة الرموز الثقافية بمعناها البشري الواسع والمعقد. وهذا يعني أن نمو الكائن البشري على **مستويين** يؤدي بالضرورة إلى بطء عملية النمو ككل عنده : أي على الجبهتين. وبعبارة أخرى، فانصراف كل جهود عملية النمو عند الإنسان إلى جبهتين - لا جبهة واحدة - **يعطل سرعة النمو على الجبهتين عند الإنسان**: أي إلى بطء في النمو الجسدي وبطء في النمو الرموزي الثقافي. يُلخّص الرسم التالي مركزية منظومة اللغة والرموز الثقافية في ذات الإنسان ، فيعطي بذلك مشروعية قوية لمقولتنا التي تؤكد أن الإنسان كائن لغوي ثقافي بالطبع.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

(الرسم ١)



وهناك مشروعية فكرية ومنهجية لوصف هذا الإطار التحليلي لمنظومة اللغة والرموز الثقافية بأنه يمثل **نظرية**، لأن النظرية هي ذلك الإطار الفكري الذي يفسر عددا من الظواهر المختلفة (Turner 2001 : 1-17). وهذا ما تُبيّنه وتشرحه نظريتنا هذه. فالمعالم ١، ٢، ٣، و ٥ المميزة للإنسان في الرسم هي حصيلة لمركزية اللغة والرموز الثقافية في هوية الإنسان. ومن هنا، تأتي مشروعيةُ استعمال منظومة اللغة والرموز الثقافية لبناء نظرية لفهم وتفسير طبيعة الإنسان وسلوكيات الناس وشؤون مجتمعا تهم.

إن مركزية اللغة والرموز الثقافية في هوية الإنسان أدت عندنا إلى بروز مفهوم جديد نسميه **البيولوجيا الرموزية الثقافية CS Biology** أي أن منظومة اللغة والرموز الثقافية تؤثر حتى في هندسة جسد الإنسان من حيث بطء نموه وطول أمد حياته. إنه مفهوم معاكس لمفهوم السوسيوبيولوجيا Sociobiology الذي يرى أنه يمكن تفسير الكثير من السلوكيا ت الاجتماعية والثقافية البشرية انطلاقا من معطيات بيولوجيا الإنسان (Wilson 1975).

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

يتبين مما سبق أن نظريتنا ترتكز على أن منظومة اللغة والرموز الثقافية هي ذلك الجانب غير البيولوجي الفيزيولوجي لهوية الإنسان المزدوجة (الرموز الثقافية + الجسم) كما يبين الرسم أعلاه. وأن جانب منظومة اللغة والرموز الثقافية هو **بيت القصيد** في هوية الكائن البشري. أي أن قدرة هيمنة هذا الأخير على بقية الكائنات وسيادته [الخلافة] عليها تعود إلى **الجانب غير المادي** في هويته المزدوجة، أي من منظومة اللغة والرموز الثقافية. ومن ثم، فالإنسان ليس حيوانا ناطقا فحسب كما قال قدماء الفلاسفة بل هو أيضا في نظريتنا كائن يستعمل كثيرا منظومة الرموز الثقافية بامتياز. إذن، فهو **كائن لغوي رموزي ثقافي بالطبع**. وبمصطلح العلوم الاجتماعية الحديثة، يسهل القول بأن علاقة الارتباط correlation قوية جدا بين اللغة المنطوقة والمكتوبة عند بني البشر، من جهة، وحضور ظاهرة الثقافة في المجتمعات الإنسانية، من جهة ثانية.

بعد هذا الطرح الفكري النظري حول مركزية اللغة في صميم هوية الإنسان والقيام بالبحث الأساسي في طبيعة منظومة اللغة والرموز الثقافية، نقدم باختصار في بقية هذا البحث **حصادَ أهم مفاهيمنا** ذات العلاقة بدراسة وضع اللغة العربية في ثلاثة مجتمعات مغاربية. توصلنا إلى تلك المفاهيم في العلوم الاجتماعية نتيجة لجهود متواصلة من البحث والتفكير والاجتهاد في فهم وتفسير الظواهر النفسية والاجتماعية المقترنة بالسلوكيات اللغوية في تونس والجزائر والمغرب. إن تزويد كل من العلوم الاجتماعية والطبيعية برصيد مفاهيم جديدة ثرية يمثل مساهمة قيّمة للدفع بمسيرة تطورها ونضجها وازدياد مصداقيتها وتأهلها للفهم والتفسير والتنظير في مجال تخصص دراساتها . وهذا ما نأمل أن تقترب من تحقيقه مفاهيمنا الخمسة لصالح علوم الإنسان والمجتمع خاصة في المجتمعات المغاربية من الوطن العربي الكبير.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

معانـي المفاهيـم في المعرفة المعاصرة

قبل التعرّف على مفاهيمنا يجب التوقف عند المعاني والدلالات المتعددة التي تقترن بكلمة مفهوم concept في العصر الحديث. فالبعض يرى أن المفهوم هو عبارة عن فكرة مجردة أو شيء عام مثل مفهوم فكرة التطور (Oxford English References Dictionary, 1995 : 298-99) . وهناك من يعتبر المفهوم **أداة فكرية** تسمح بإدراك العلاقات الموجودة بين بعض الظواهر. فمثلا، إن الفرد الذي تعلّم إطفاء النار في المنزل بواسطة ماء الحنفية ولكنه لم يستعمل ماء البحيرة للقيام بنفس الشيء ، فإنه يُنظر إليه على أنه لم يستوعب مفهوم الماء بصفة عامة وعلاقته بإطفاء النار (Sillamy, 1998 : 63). ويذهب البعض الآخر إلى اعتبار المفاهيم نوعا من المادة **الغروية الذهنية glue** التي تربط تجاربنا الماضية بتفاعلاتنا الحاضرة مع العالم ، إذ أن المفاهيم نفسها مرتبطة ببنيات معارفنا الرحبة (Murphy, 2004 :1). ونختم هذه التعريفات لمصطلح المفهوم بما جاء في موسوعة **علم الاجتماع** حول هذا الموضوع. تقول هذه الموسوعة إن المفهوم يشير إما إلى علاقات الأشياء أو إلى وصف خاصياتها. إن المفاهيم ليست أقوالا جازمة، ومن ثَم فهي لا تتصف لا بالصواب ولا بالبطلان. فمن جهة، تُعطي المفاهيمُ بكل بساطة مجموعة من المفردات اللغوية تحتاجها نظرية ما. كما تحدد المفاهيمُ، من جهة ثانية ، موضوع البحث نفسه. وعندما تترابط المفاهيم في إطار ما يكون ذلك إشارة إلى **بداية ميلاد نظرية** (Encyclopedia of Sociology, 1974 :55). ولعل هذا التعريف السوسيولوجي للمفهوم هو الذي سوف تتجلى معالمه أكثر في بقية متن هذا البحث.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

مفهوم التخلف الآخر

تجلت لنا ملامح مفهوم التخلف الآخر في بداية الثمانينات من القرن الماضي (الذوادي، ١٩٨٣: ٢٠-٤١). ويعتبر هذا المفهوم الأشهر عالميا اليوم بين مفاهيمنا الأخرى ، إذ هو المفهوم الوحيد الذي أصدرنا حوله كتابين (٢٠٠٢) باللغتين العربية والإنجليزية يحملان «التخلف الآخر» كعنوان رئيسي لكليهما (الذوادي، Dhaouadi2002). كما جاء عنوان كتابنا باللغة الفرنسية في ٢٠١٠ حاملا أيضا لمفهوم التخلف الآخر (Dhaouadi 2010). وجاء مفهوم التخلف الآخر عنوانا لفصل لكتابنا الأخير الصادر باللغة الإنجليزية (2013Dhaouadi). وربما ما زاد في انتشار هذا المفهوم في العالم العربي هو بث قناة الجزيرة (٢٠٠٣) عرضا كاملا للكتاب في برنامجها الأسبوعي «**الكتاب خير جليس**». أما على مستوى التعريف بهذا المفهوم في اللقاءات الفكرية الأكاديمية العالمية ، فقد كان موضوع «التخلف الآخر» عنوانا لجلسة علمية session في المؤتمر العالمي السادس عشر لعلم الاجتماع الذي عُقد في (٢٣-٢٩/٧/٢٠٠٦) في مدينة Durban بجنوب إفريقيا (٢).

يفيد مفهوم «التخلف الآخر» عندنا تلك **الظاهرة الموجودة لكن المنسية** من طرف المختصين في العلوم الاجتماعية المهتمين بقضايا التنمية والتخلف في مجتمعات العالم الثالث والعربي. فوفق ملاحظاتنا ودراساتنا للبعض من تلك المجتمعات واطلاعنا على أدبيات التنمية والتحديث فيها، فإن التخلف الآخر يتمثل بالتحديد في **تخلف** تلك المجتمعات **لغويا وثقافيا** في استعمال لغاتها وثقافاتها في المقام الأول في أوطانها ، من ناحية ، وشعور بمركب النقص (**تخلف نفسي**) إزاء الغرب، من ناحية ثانية. تتجلى معالم التخلف اللغوي الثقافي في العالم الثالث في تسرّب اللغتين الفرنسية والإنجليزية وثقافتهما - عبر الحملات الاستعمارية وما بعدها - إلى مجتمعات العالم الثالث بحيث

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

أصبح مواطنو هذه المجتمعات يستعملون كثيرا لغات المستعمر بمزجها في حديثهم مع اللغات/اللهجات المحلية (الفرنكوأراب بالمغرب العربي ومزج الانجليزية بالعاميات العربية في الخليج والمشرق العربيين) أو يتحدثون بها فقط في ما بينهم ويستعملونها كثيرا/أو فقط في الكتابة. ومن خلال مفهومنا للتخلف الآخر يمكن القول بأن الفرد يصبح يتصف بأقصى أعراض التخلف الآخر عندما تصبح لغته الوطنية **لغة ثانية** في استعماله اللغوي اليومي في مجتمعه المستقل وعندما **يضعف أو يفقد** عنده الاعتزاز بلغته والدفاع عنها، كما هو الحال بعد الربيع العربي وقبله عند عد د كبير من المتعلمين والنخب المثقفة في تونس و الجزائر و المغرب وفي غيرها من المجتمعات العربية.

وللتخلف اللغوي الثقافي انعكاسات سلبية على هويات الأفراد والمجتمعات. فالملاحظات الميدانية وبحوث العلوم الاجتماعية تفيد أن انتشار أعراض التخلف الآخر يجعل الأفراد والمجتمعات لا يعّرفون هوياتهم في المقام الأول بلغتهم الوطنية كما يفعل الألمان والفرنسيون والإيطاليون والأسبان. وبعبارة أخرى ، فالتخلف الآخر طالما يُدخل **إرباكا وضبابية** في الانتساب الهوياتي اللغوي الثقافي الواضح المعالم عند الأفراد والمجتمعات. إذ تشير الملاحظات الميدانية والدراسات إلى أن **لغات الأفراد والمجتمعات هي بطاقات تعريف لهوياتهم** جميعا (الذوادي ٢٠١٣).

ولتجسيم معالم مفهوم التخلف الآخر بشكل بياني يبرز تشابك أبعاده اللغوية الثقافية مع معالمه النفسية في طيات شخصيات الأفراد وسلوكياتهم إزاء لغاتهم وثقافتهم ورؤاهم لأنفسهم نقدم الرسم التالي :

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

الرسم ٢

التخلّف الثقافي- النفسي (التخلّف الآخر)			
(أ) ملامح التخلّف الثقافي ←	١-التخلّف ← اللغوي -التخلّف المعرفي- العلمي ←	١-الشعور بمركب النقص إزاء الغالب → (الغرب)	(ب) ملامح التخلّف النفسي →
	-التخلّف على مستوى القيم ←	الشخصية المضطربة وأعراض ثقافية ونفسية غير سليمة →	

مفهوم الفرنكوأراب الأنثوية

فمن ناحية ، يُطلق المصطلح الفرنسي «الفرنكوأراب» Le franco-arabe على مزج اللغتين العربية والفرنسية في حديث مواطنات ومواطني مجتمعات المغرب العربي المعاصرة. ومن ناحية ثانية، تفيد الملاحظات الميدانية ودراساتنا بأن **المرأة التونسية المتعلمة** على الخصوص تميل إلى استعمال مفردات وجمل فرنسية **أكثر** من نظيرها الرجل في حديثها بالعامية التونسية. كما أنه يغلب على النساء التونسيات استعمال **النبرة الباريسية l'accent parisien** في عاميتهن التونسية أو في أحاديثهن بالفرنسية الصرفة أو في قراءاتهن بها. ومن ثم جاء **مفهومنا للفرنكوأراب الأنثوية** الذي يجوز تعميمه بسهولة على النساء في الجزائر والمغرب (Dhaouadi, 1996 : 107-125, 2002 : 41-53, 2003 :417-435 الذوادي، 1996:81-91، 1982:124-137).

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

ويعود هذا النوع من الفرنكوأراب إلى عوامل نفسية واجتماعية تعرضت/ تتعرض لها المرأة التونسية في المجتمع **أكثر** من الرجل التونسي. فظاهرة الفرنكوأراب تمثل بهذا الاعتبار ملمحا من ملامح **التخلف الآخر** الذي له انعكاسات سلبية ، مثلا ، على علاقة المرأة التونسية و المغاربية باللغة العربية (اللغة الوطنية) وبالتالي على علاقة بناتها وأبنائها بهذه اللغة الوطنية. وهو وضع يعمل على إضعاف مستوى المناعة اللغوية الثقافية العربية لدى الشباب العربي. أي أن ذلك الشباب يصبح في حالة لا تهيئه ليكون صاحب موقف قوي ليدافع عن اللغة العربية وثقافتها. كما أن لذلك آثارا سلبية أيضا على الانتساب الهوياتي للأفراد لما للغات من علاقة وثيقة بهويات الشعوب والمجتمعات البشرية، كما رأينا ذلك في مفهوم التخلف الآخر.

إن محاولة الكشف عن جذور الفرنكوأراب الأنثوية يساعد عليها ما نريد أن نطلق عليه **قانون الحتمية الاجتماعية النفسية والثقافية**. فعلى المستوى الاجتماعي تشكو المرأة المغاربية الحديثة من دونية مزدوجة: (أ) فهي مثل نظيرها الرجل في موضع **المغلوب** بالنسبة للمستعمر الفرنسي القديم الغالب والغرب بصفة عامة و(ب) فهي تشكو من **دونية ثانية** مقارنة بزميلها الرجل من حيث مكانتها الاجتماعية عموما وتمتعها بما نسميه **مكاسب الحداثة** خصوصا (Dhaouadi 2008). وبعبارة أخرى، فالبنيات الاجتماعية وقيم وأعراف وتقاليد مجتمعها العربي المسلم تضع أمامها عراقيل أكثر من الرجل بالنسبة لمحاولتها التقدم اجتماعيا وكسب رهان الحداثة. في هذه الظروف تجد نفسها **معرّضة أكثر** من الرجل المغاربي إلى ضغوط وإحباط نفسي واجتماعي وثقافي. وسعيا منها لتجاوز وضعها الاجتماعي والنفسي والثقافي المتدني تلوذ إلى ما يمكن أن نسميّه **بالحل الرموزي التعويضي**، أي أن حالة عجزها على تغيير وضعها الاجتماعي مباشرة جعلها تلجأ إلى أحضان اللغة الفرنسية كعالم رموز لغوي تقدّمي وتحديثي. فتستعملها أكثر من نظيرها الرجل وتتقن نطقها

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

الصحيح **بالكامل** بالنبرة الباريسية كما يفعل ذلك الباريسيون أنفسهم. واستعمال الأنثى المغاربية للرموز اللغوية كحلّ لوضعها الاجتماعي المتأزم ليس في واقع الأمر بالشيء الغريب. فخطاب «**الدعا**» (الدعاء على) المتفشي بين الفئات النسائية المغاربية مثال آخر حيّ وناطق على ذلك (الذوادي ٢٠٠٦ :٢٣١-٢٤٤). فاستعمالها المكثف للفرنسية وبالنبرة الباريسية في نطق حرف الـ (r) هو عبارة عن **احتجاج سلمي** ضد مجتمع ذكوري ، من جهة ، **وتقليد بالكامل** للآخر الفرنسي في لغته ، من جهة ثانية. أما محافظة المغاربي في الغالب على نطقه حرف الـ (r) بنبرة الراء (ر) العربية ففيها أكثر من إشارة ورمز على وضعه الاجتماعي والنفسي والثقافي في هذا الصدد. نعم هو منجذب إلى استعمال الفرنسية بسبب انجذابه للحداثة وبسبب وضعه المغلوب أمام الفرنسي والغربي بصفة عامة. ومع ذلك يبقى وضعه الاجتماعي والنفسي أحسن من وضع زميلته المرأة على مستوى **الاغتراب اللغوي الثقافي**. وهذا ما يسمح له بالتميّز شيئا ما عن الفرنسي الباريسي وهو يستعمل لغته. فهو ينطق عموما حرف الـ (r) بنبرة عربية لا بنبرة باريسية. فكأنه بسلوكه اللغوي هذا يؤكد بإصرار على تعنته في التمسك بشيء من ذاتيته/هويته حتى وهو يقلّد الآخر في استعمال لغته ، أي أنه **غير متساو** في ترشحه - اجتماعيا ونفسيا وثقافيا - مع نظيرته المرأة في تقليد الآخر الغالب بالكامل. فعلى مستوى تقليد الآخر لغويا، نحن أمام صنفين من التقليد: (١) **تقليد بالكامل** و(٢) **تقليد منقوص**. وكل منهما حصيلة لنوع خاص من الحتمية الاجتماعية والنفسية والثقافية كما تمّ بيان ذلك. ويفصح كل من هذين التقليدين عمّا تتعرض له **هوية كل من الجنسين** من درجة الانصهار في **الآخر**. ومن المفارقات هنا أن يستمر المغاربيون والمغاربيات في الاعتقاد بأن ميلهم إلى استعمال اللغة الفرنسية بدل اللغة العربية/الوطنية يعدّ سلوكا تقدّميا وعصريا والحال أن

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

العكس هو الصحيح كما أبرزنا ذلك في مفهوم التخلف الآخر أعلاه وفي أماكن أخرى من دراساتنا وكتبنا (الذوادي ٢٠٠٢، Dhaouadi 2002).

الثنائية اللغوية الأمارة

إن ما نصطلح عليه «الثنائية اللغوية الأمارة» (الذوادي ٢٠١٣) هو مفهوم جديد مثله مثل مفاهيمنا الأخرى: التخلف الآخر، التعريب النفسي، الفرونكوأراب الأنثوية، الرموز الثقافية، الشخصية التونسية المستنفرة. وفي رأينا، فالعلوم الاجتماعية في المجتمعات العربية لا يمكن لها أن تتقدم حقا بدون الظفر بكسب رهان **ابتكار مفاهيم وأطروحات ونظريات جديدة مستلة من واقع تلك المجتمعات**، وبالتالي فهي صالحة أكثر من غيرها المستورد لفهم وتفسير ما يوجد في هذه المجتمعات من ظواهر وما يجري فيها من أحداث.

نصف هذا النوع من الثنائية اللغوية **بالأمارة** بالمعنى الذي ورد في وصف القرآن الكريم للنفس البشرية. فيفيد المصطلح القرآني للنفس الأمارة أنها تلك النفس التي تجنح إلى فعل السوء. ومن المؤكد أن الأغلبية الساحقة من المغاربيات والمغاربيين خاصة المثقفين والمتعلمين منهم سوف يتعجبون من وصف الثنائية اللغوية عندهم بأنها أمارة بالسوء. ولابد أن يغضب فعلا الكثير من هؤلاء على إطلاقنا مثل تلك الصفة على الثنائية اللغوية. وليس بالصعب على عالم النفس الاجتماعي تفسير مثل رد الفعل هذا من طرفهم. فعالم النفس الاجتماعي يرى أن الناس يتعلمون معظم الأشياء بعد ولاداتهم في محيطهم الاجتماعي الصغير والكبير. ومن الواضح أن اللغة هي من أولى الأشياء التي يتعلمها الأفراد في الأسرة والمجتمع. فمعظم المغاربيين والمغاربيات **تعلّموا** في عهديّ الاستعمار والاستقلال في أسرهم و مدارسهم وجامعاتهم و مجتمعهم **بأن تعلم اللغة الفرنسية/الأجنبية مكسب كله خير**. فهذا المكسب الخير عندهم هو مسلّمة من المسلّمات غير قابلة للتساؤل والتشكيك. وبعبارة أخرى،

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

فهم لا يكادون يتصورون أي إساءة يمكن أن تأتي من الثنائية اللغوية.ولكن ينبهنا عِلْمَا النفس والاجتماع بأن البشر ومجتمعاتهم ليسوا قادرين فقط على تبني الأشياء الخاطئة والعيش عليها وإنما الأكثر من ذلك أنهم مستعدون أيضا للدفاع عليها والمقاومة من أجلها بكل حماس والتضحية حتى بأنفسهم لصالحها.

ولتوضيح مفهوم الثنائية اللغوية الأمارة أكثر ، فالمنهجية البحثية تطالب بتعريفها كالتالي: إنها تلك الثنائية اللغوية التي لا تكون فيها للغة الأم/الوطنية المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات ثنائيات وثنائيي اللغة. أي أن اللغة الأم/الوطنية لا تحتل المرتبة الأولى عند هؤلاء على المستوى العاطفي والنفسي وعلى المستوى الذهني والفكري وعلى مستوى الممارسة والاستعمال. إن أصحاب الثنائية اللغوية الأمارة تجدهم غير متحمسين كثيرا للذود عن لغتهم الأم/ الوطنية وغير مبالين إزاء عدم استعمالها في شؤونهم الشخصية وفي ما بينهم في أسرهم واجتماعاتهم ومؤسساتهم بحيث تصبح عندهم في حالات عديدة لغة ثانية أو ثالثة. إن ظاهرة الثنائية اللغوية الأمارة هي ما يلاحظه الباحث في المسألة اللغوية لدى أغلبية مواطنات ومواطني مجتمعات المغرب العربي اليوم. أفلا يكتب معظم هؤلاء صكوكهم المصرفية/شيكاتهم باللغة الفرنسية بدلا عن اللغة العربية؟ أفلا يكاد النساء المغاربيات المتعلمات والمثقفات على الخصوص تستعمل إلا اللغة الفرنسية في حديثهن عن الألوان ومقاييس الملابس وغيرها؟ يوضح هذان المثالان أن معرفة الفرنسية قليلا أو كثيرا يجعل المرأة والرجل المغاربييْن **شبه متآمريْن ضد استعمال لغتهما الوطنية (اللغة العربية)** وذلك **لعدم إعطائها أولوية الاستعمال** بينهما في البلدان المغاربية، كما يفعل المواطنون والمواطنات في المجتمعات المتقدمة، مثلا.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

الجامعيون واللغة العربية في المغرب العربي

ننظر الآن إلى ظاهرة الثنائية اللغوية الأمارة لدى المثقفين والجامعيين من تونس والجزائر والمغرب كعينة ميدانية للتعامل مع اللغة العربية/الوطنية. حضرنا ندوة حول نمو المدن المغاربية عبر العصور في ٢٦. ٢٧/٠٥/٢٠٠٥. أُقيمت هذه الندوة من طرف المركز الأمريكي للدراسات المغاربية بتونس العاصمة .كانت أغلبية المشاركين من الجزائريين والمغاربة والتونسيين. اختار هؤلاء اللغة الفرنسية للقيام بمداخلاتهم ما عدا مشاركة مغربية وحيدة **اختارت اللغة العربية** لإلقاء محتوى ورقتها. وقد أثار ذلك **حيرة وصدمة واستهزاء** بين زملائها وزميلاتها المغاربيين توحي بعدم استحسان الأمر بين معظم هؤلاء وربما اللّوم على تجاسر المشاركة المغربية على استعمال اللغة العربية في هذه الندوة. علما أن المنظمين الأمريكيين للندوة وافقوا أن تلقي المشاركة المغربية ورقة بحثها باللغة العربية. إن رد فعل هؤلاء الأكاديميين المغاربيين غير المتعاطف مع استعمال اللغة العربية إن لم نقل الناقد له في هذه الندوة يفسره منظورُ علم الاجتماع كما يلي. أتت صدمة وحيرة هؤلاء المغاربيين كنتيجة لغياب استعمال اللغة العربية كلغة أولى في الندوات و المؤتمرات المغاربية الصرفة. أي **أن** جل المثقفين والمتعلمين المغاربيين **لم ينجحوا** في عهد الاستقلال **في تطبيع علاقتهم باللغة العربية**، لغتهم الوطنية الأولى بحيث تصبح هذه الأخيرة هي العرف اللغوي التلقائي للتواصل بين الأكاديميين والباحثين في هذه المجتمعات مثلما هو الأمر في بعض مجتمعات المشرق العربي. فلو نُظمت هذه الندوة في القاهرة لكان تقد يم البحوث باللغة العربية أمرا عاديا ومنتظرا لا انحرافا ونشوزا كما حدث لد ى الأكاديميين المغاربيين مع المحاضِرة المغربية بلغة الضاد. يشير ذلك إلى مدى **استمرار رواسب الاستعمار اللغوي الثقافي الفرنسي** بين النخب الثقافية في هذه المجتمعات وذلك بعد عقود من الاستقلال. ولا ريب أن مثل هذا السلوك اللغوي النافر من اللغة العربية لدى صفوة المتعلمين والمثقفين

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

في المغرب العربي يشير بكثير من الشفافية إلى أنهم يشكون بقوة من فقدان شعور الاعتزاز باللغة العربية وبالتالي من ارتباك وتصدع في هويتهم العربية، إذ اللغة، كما أشرنا، هي بطاقة تعريف للأفراد والمجتمعات.

وارتباطا بقضية الثنائية اللغوية الأمارة في مجتمعات المغرب العربي، يتباهى الكثير من المثقفين والمتعلمين التونسيين والجزائريين و المغاربة بأن مستوى معرفة أفراد مجتمعاتهم للغة الفرنسية حتى المرحلة الثانوية هي أفضل من معرفة تلاميذ المجتمعات العربية المشرقية للغة الإنجليزية في المرحلة الثانوية. لكن لا ينبغي أن يُعتبر ذلك بالضرورة أمرا إيجابيا كما يعتقد هؤلاء. فمن سلبيات ذلك أن اللغة العربية/الوطنية ليست لها المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمال عامة المواطنين المغاربيين والأكاديميين في الطليعة كما رأينا في المثال السابق. يمكن القول بأن أنظمة التعليم في معظم المجتمعات العربية المشرقية هي أفضل من نظيراتها بالمغرب العربي على مستوى تعليم اللغات الأجنبية بطريقة محدودة بحيث **لا تمثل خطرا على اللغة العربية** على مستوى وجود علاقة طبيعية حميمة مع اللغة العربية في قلوب الناس وعقولهم وممارساتهم اليومية. ومنه يجوز الحديث هنا عن صنفين من الثنائية اللغوية: ثنائية خطيرة على اللغة العربية كما يبيّن حال الأكاديميين المغاربيين المشار إليه وثنائية سليمة تحافظ على مكانة اللغة الوطنية/العربية عالية في قلوب وعقول واستعمالات المواطنين.

ضُعف أو غياب الثنائية اللغوية اللوامة

فبكل بساطة يعني مصطلح الثنائية اللغوية معرفة الشخص أو المجتمع للغتين: اللغة الأم/الوطنية ولغة ثانية. ومن المعروف في الظروف العادية أن يكون للغة الأم/الوطنية **المكانة الأولى** في قلوب وعقول واستعمالات مواطني المجتمع. فهذا الصنف من الثنائية اللغوية يجعل الناس ومجتمعهم يغارون

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

على لغتهم ويتحمسون للدفاع عن لغتهم فيلوم بعضهم البعض حتى على ندرة عدم احترام البعض منهم للغة البلاد.ونود تسمية هذا النوع من الازدواجية اللغوية **بالثنائية اللغوية اللوامة**. فهذه الأخيرة تحرص كل الحرص وبحماس كبير على المحافظة على مناعة اللغة الأم/الوطنية وتطورها ونموها متخذة من أجل ذلك كل السبل الضرورية من توعية مجتمعية باللغة الوطنية كرمز وطني مقدس مثل علم البلاد ومن المطالبة بتبني سياسات لغوية تصون اللغة الأم/ الوطنية من **انحدار مكانتها نفسيا واجتماعيا** إلى المرتبة الثانية أو الثالثة بين أهلها وذويها، كما رأينا في بعض الأمثلة السابقة.

تفيد الملاحظات الميدانية المتكررة للسلوكيات اللغوية للناس والمؤسسات في تونس والجزائر والمغرب أن الثنائية اللغوية اللوامة غائبة عموما وفي أحسن الأحوال ضعيفة جدا لدى الأغلبية الساحقة من الفئات والطبقات الاجتماعية في المجتمعات المغاربية الفرنكوفونية.

ضعف التعريب النفسي في المغرب العربي

إن الباحث في المسألة اللغوية في المجتمعات المغاربية الحديثة يجد فيها حالة ضُعف التعريب النفسي لدى أغلبية مواطناتها ومواطنيها. ويعني **مفهوم ضعف التعريب النفسي** عندنا: هو ذلك الوضع الذي لا تحتل فيه اللغة العربية (اللغة الوطنية) في هذه المجتمعات نفسيا واجتماعيا المكانة الأولى في قلوب وعقول واستعمالات معظم المغاربيات والمغاربيين المتعلمين على الخصوص. فمن منظور علم النفس الاجتماعي يمكن القول بأنه يوجد اليوم **موقف نفسي جماعي عام** لدى جل المواطنات والمواطنين في المجتمعات المغاربية لا يسمح لهم بتطبيع علاقتهم مع اللغة العربية التي تؤكد دساتير تلك المجتمعات في أولى فقراتها أن اللغة العربية هي لغتها الوطنية الأولى. ويعني التطبيع عندنا أن **تصبح العلاقة بينهم وبين اللغة العربية من نوع العلاقة العضوية** التي تربط عادة بين

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

المجتمعات ولغاتها الوطنية والمتمثلة في استعمال اللغة الوطنية في كل قطاعا ت المجتمع ،من ناحية، وا لشعور نفسيا بالاعتزاز الكامل باستعمال اللغة الوطنية والدفاع عنها في دوائر العلاقات الخاصة وفي المجالات العامة، من ناحية ثانية. بذلك تزداد إمكانية اختفاء ظاهرة الثنائية اللغوية الأمارة الطاغية في تلك المجتمعات، فيقوى حظُ ظهور الثنائية اللغوية اللوامة لتحل محلها. بذلك فقط يزول شبح استمرار الاستعمار اللغوي الثقافي وكسب رهان **الاستقلال الثاني** (اللغوي الثقافي) على الساحة المغاربية.

ظاهرة الغصة اللغوية المغاربية

وارتباطا بالمفاهيم السابقة ، وُلد عندنا مفهوم جديد في مطلع شهر مايو ٢٠١٣ يتمثل في ما نسميه «**الغصة اللغوية**» التي ندرس من خلالها أصناف الغصة اللغوية في المجتمعات المغاربية. ولاشك أن كل مجتمعات المغرب العربي – ما عدا ليبيا – تشكو ألسنتها وحلوقها من هذه الغصة. وتوجد هذه الظاهرة بدرجات أقل في معظم بقية المجتمعات العربية. فلأسباب أصبحت معروفة، تشكو بعض مجتمعات الخليج العربي من هذه الغصة اللغوية أكثر من غيرها في مجتمعات المشرق العربي. ويصعب التفاؤل على المدى المتوسط والبعيد في مستقبل واعد ومشرق لشعوب يزداد فيها انتشار الغصة اللغوية على طول وعرض الوطن العربي بما فيها المجتمع التونسي رائد انتفاضات الربيع العربي.

ما هي الغصة اللغوية المغاربية؟

عندما يسأل الإنسان المرأة المغاربية أو نظيرها المغاربي لماذا يمزجان حديثهما بكثير من الكلمات والجمل الفرنسية، يكون ردهما في الغالب لأنهما لا يجدان بسهولة المفردات والتعبيرات العربية المناسبة. أي كأنهما **تصيبهما غصة لغوية** أثناء محاولة استعمال العربية الصافية في شكل العامية العربية

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

المغاربية النقية أو العربية الفصحى فيستغيثان برصيد ما يعرفانه من اللغة الفرنسية لمعالجة تلك الغصة وأعراضها. وبعبارة أخرى، يجوز تسمية المزج اللغوي المتفشي بين العربية والفرنسية (الفرنكوأراب) لدى الشعوب المغاربية بأنه غصة لغوية في ألسنة وحلوق أغلبية المغاربيات والمغاربيين. وهو مفهوم جديد يُضاف إلى مفاهيمنا الأخرى المستحدثة المذكورة سابقا.

الغصص اللغوية أعراض لمشاكل؟

واللافت للنظر بهذا الصدد، أن معظم هؤلاء التونسيات والتونسيين **يرغبون** في المحافظة على تلك الغصة اللغوية حتى في الحديث عن أبسط الأشياء مثل ذكر الأرقام . فعلى سبيل المثال، يسمع الشخص بطريقة مطردة أن ركاب المترو بتونس العاصمة لا يستعملون إلا اللغة الفرنسية في الحديث عن أرقام شبكة المترو لتونس العاصمة وضواحيها. يرى عالم النفس الاجتماعي أن الغصة اللغوية كظاهرة اجتماعية في المجتمع التونسي بعد الثورة وقبلها تعود في المقام الأول إلى **عوامل نفسية واجتماعية وثقافية** تتجلى في صميم تركيبة الشخصية القاعدية التونسية وصرح المؤسسات الاجتماعية التونسية وصلب العقل الجماعي لمعظم فئات وطبقات المجتمع التونسي الحديث.

أنماط الغصّة اللغوية التونسية

يمكن ذكر ثلاثة أصناف من الغصص اللغوية في المجتمع التونسي اليوم: ١- غصة لغوية **عادية** كما جاء تعريفها أعلاه. ٢- غصة لغوية تكاد تغيب فيها في الحديث الكلماتُ والجمل العربية. ٣- غصة نفسية كاملة تجعل التونسية والتونسي يصمتان بالكامل عن الدفاع عن اللغة العربية.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

يكفي هنا تقديم عيّنة من الأمثلة للقارئ ليكتشف باجتهاده الخاص نوع الغصّة اللغوية والجوانب النفسية والاجتماعية التي تقف وراء ها في شكلها المكتوب والمنطوق والصامت:

١. عُرف في العهد البورقيبي أن مَحاضر اجتماعات الوزراء كانت تكتب بالفرنسية. كما يشهد مرافقو الرئيس بورقيبة في رحلاته خارج البلاد أنه يستعمل الفرنسية عوضا عن العربية في لقاءاته مع القادة الأمريكيين أو الألمان على سبيل المثال. أي تقع ترجمة كلام الرئيس بورقيبة إلى مخاطَبيه من الفرنسية وليس من اللغة العربية/الوطنية إلى الإنكليزية أو الألمانية.

٢. خاطب الرئيس المنصف المرزوقي في قصر قرطاج في ٢٠١٢ نظيره الإيطالي باللغة الفرنسية بدلا عن اللغة العربية / الوطنية.

٣. تتعامل جل البنوك التونسية حتى يومنا هذا مع زبائنها التونسيين باللغة الفرنسية كتابة.

٤. تُعوِّض اليوم كلمة «ماما» كلمة َأمي عند أغلبية الأطفال التونسيين وكذلك يستعمل كثير من الجمهور التونسي عبارة ça va عوضا عن كلمة لا باس التونسية.

٥. لا يكاد يستعمل التونسيات والتونسيون إلا اللغة الفرنسية في الحديث عن أرقام الأشياء. وهذا ما يشهد به ، مثلا ، حديثهم عن شبكة المترو بالعاصمة، كما ذكرنا.

٦. نظمت النساء الديمقراطيات التونسيات بضواحي العاصمة لقاء في ٢٨ /٢٠١٢/٠١ ببيت الحكمة [مركز الآداب والفنون والعلوم] ليتحدث فيه خاصة بعض النساء المثقفات في العلوم الإنسانية والاجتماعية عن وضع المرأة في المنطقة العربية الإسلامية. اختارت جميع المتحدثات

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

اللغة الفرنسية في القيام بمداخلاتهن رغم أن مكانة المرأة في القرآن والحديث ولدى الفقهاء كانت الموضوع الرئيسي.

٧. لا تكاد التونسيات تستعمل إلا اللغة الفرنسية في الحديث عن ألوان ومقاييس الملابس.

٨. لا تكتب الأغلبية الساحقة من التونسيات والتونسيين صكوكها المصرفية/ شيكاتها إلا باللغة الفرنسية .

٩. يُلاحظ على الإذاعات والقنوات التلفزيونية العربية الوطنية التونسية بعد الثورة استعمال أكثر للغة الفرنسية مما كان عليه الحال قبل ٢٠١١/٠١/١٤. وهو ما نجده ، مثلا ، عند المذيعة التونسية المقدمة للأخبار في الإذاعة الوطنية التي استعملت في شهر ماي ٢٠١٣ كلمة plutôt عوضا عن الكلمة العربية (بل).

العجز عن التحرر الحقيقي

إن المفاهيم الواردة سابقا تصف وضعا غير طبيعي للغة العربية/الوطنية في مجتمعات المغرب العربي الثلاثة. فهناك غياب كبير للثنائية اللغوية اللوامة بين معظم فئات شعوب هذه المنطقة. وفي المقابل ثمة حضور قوي **للثنائية اللغوية الأمارة** المرتبطة شديد الارتباط بضعف التعريب النفسي عند أغلبية سكان هذه المجتمعات. فهي مجتمعات تشكو من **مشكلة** تتمثل في علاقتها بلغتها الوطنية. وهو وصف مشروع لأن اللغة الوطنية هي العمود الفقري لوجود المجتمعات والمحافظة على هويتها. فطغيان سلطان الثنائية اللغوية الأمارة بين أفراد ومؤسسات البلدان المغاربية بعد أكثر من نصف قرن من الاستقلال لا يبشر بفوزها السليم بالاستقلال التام. إذ لا يجوز موضوعيا الحديث عن كسب رهان هذا الأخير بينما يستمر فيها الاستعمار اللغوي والثقافي على قدم وساق. إنه **استعمار** يمثل في نهاية المطاف **صنارة استلاب وخدش لروح وهوية**

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

الشعوب في المغرب العربي. فهل تنجح القيادات السياسية والنخب الثقافية وكل الطبقات الاجتماعية في المجتمعات المغاربية في عملية التلقيح ضد الثنائية الازدواجية اللغوية الأمارة ؟ ذلك هو السؤال كما قال شكسبير.يلاحظ أن ظاهرة الازدواجية اللغوية الأمارة هي في ازدياد في كثير من المجتمعات العربية الأخرى وفي طليعتها مجتمعات الخليج العربي.وهو وضع في الاتجاه المعاكس للاعتزاز باللغة العربية ا اللغة الرسمية والوطنية للمجتمعات العربية ولما تفعله المجتمعات المتقدمة مع لغاتها الوطنية كما هو الحال في اليابان وكوريا الجنوبية والمجتمعات الأوروبية.

تصدُّعُ حال اللغة العربية

ومما وقع بيانه يمكن الحديث عن تصدع في وضع اللغة العربية في مجتمعات المغرب العربي وفي كثير من المجتمعات العربية وبدرجات مختلفة. نركز هنا على وصف معالم هذا التصدع بالمجتمع التونسي الذي ينطبق على عديد الأقطار العربية .فمن ناحية ، تفيد الملاحظات الميدانية للسلوكيات اللغوية التونسية قبل الربيع العربي وبعده انتشارا كبيرا للثنائية اللغوية الأمارة. ومن ناحية ثانية ، لا يكاد يجد المرء حضورا لظاهرة التعريب النفسي لدى أغلبية الأجيال التونسية منذ الاستقلال في ١٩٥٦. والمفهومان هما وليدان في جانب منهما لنظام التعليم التونسي قبل الاستقلال وبعده. فتعليم التونسيات والتونسيين في نظام تربوي استعماري ثم وطني ضعيف الأصالة العربية الإسلامية بعد الاستقلال قد أضعف علاقة الخريجين التونسيين بلغتهم الوطنية بحيث أصبح يَنظرُ إليها معظمُهم نظرة دونية نفسيا واجتماعيا الأمر الذي جعل معظمهم يتصفون بفقدان التعريب النفسي وبتبني الثنائية اللغوية الأمارة، كما أشرنا. يطرح واقع فقدان التعريب النفسي وانتشار الثنائية اللغوية الأمارة في البلاد التونسية ملاحظتين أساسيتين حول مشاكل اللغة العربية يمكن تعميمها على

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

بقية المجتمعات المغاربية وبعض المجتمعات العربية الأخرى على الأقل بالنسبة لدرجات مستويات التصدع في الهوية اللغوية:

١. لا يكاد يشعر معظم التونسيات والتونسيين بضُعف أو فقدان التعريب النفسي لديهم كأفراد ولدى كثير من مؤسسات مجتمعهم. بل الأمر لديهم أكثر من ذلك. إذ يعتبرون أن الوضع الحالي للغة العربية (حضور الثنائية الأمارة وفقدان التعريب النفسي) هو وضع شبه عاد وأن تغييره يمثل انحرافا عن المألوف. فمطالبتهم ، مثلا ، بكتابة صكوكهم المصرفية بالحروف العربية مسألة غير مقبولة عند أغلبيتهم لأنهم ينظرون إلى ذلك على أنه سلوك غير سوي اجتماعيا أو علامة على التخلف. فاستعمال اللغة الفرنسية يصبح السلوك السوّي وفي المقابل يصبح استعمال اللغة العربية سلوكا منحرفا عند معظم الخاصة والعامة. وبعبارة أخرى، فنحن هنا أمام **مشاهد سلوكيات لغوية مقلوبة** ترمي بسهامها لصالح شرخ وتصدع الهوية اللغوية العربية لهؤلاء التونسيات والتونسيين ومنه للشعب التونسي.

٢. عبّر ضُعف التعريب النفسي أو فقدانه في المجتمع التونسي قبل وبعد الثورة عن **تناقض** واضح بين القول والفعل. فدستور البلاد يعلن أن اللغة العربية هي اللغة الرسمية الوحيدة للمجتمع التونسي. بينما لا يكتفي الكثير من التونسيات والتونسيين والمؤسسات التونسية باستعمال اللغة الفرنسية فقط في التعاملات بينهم بل يشعرون أيضا بمركب نقص من استعمال لغتهم الوطنية. يشير مثل هذا التناقض الصارخ إلى بعض المعالم النفسية في صُلب تركيبة الشخصية القاعدية التونسية. فكأنها شخصية لا ترغب سلوكيا في الالتزام بما تقوله ، فتحرم نفسها من خصال الشفافية لصالح احترام ثوابت الهوية الوطنية - مثل اللغة - كما تفعل الشعوب الكاملة السيادة اللغوية والثقافية في الشرق والغرب.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

ومما يزيد الطين بلّة أن تلك الصفات تبرز أكثر لدى النخب الثقافية والسياسية التونسية القيادية. **يجوز وصف تلك النخب بأنها لغويا منقوصة الوطنية** لأن اللغة العربية / الوطنية للبلاد التونسية لا تحظى من طرف أغلبيتهم بما تحظى به اللغات الوطنية في المجتمعات الغربية المتقدمة مثل ألمانيا وفرنسا وإيطاليا وإسبانيا. إن معلم التصدع اللغوي في المجتمع التونسي وبقية معظم المجتمعات المغاربية وغيرها مرشح بقوة للتأثير سلبا على قوة تماسك منظومة الهوية العربية في تلك المجتمعات وبالتحديد لدى النخب السياسية والمثقفة على الخصوص.

تحقير العربية حتى لدى المرشحين للدفاع عنها

فاستعمال الشعب التونسي في الكتابة والحديث للغة المستعمر عوضا عن اللغة العربية/الوطنية ظاهرة كاسحة و منتشرة على طول وعرض البلاد التونسية ، كما رأينا. ونود في ختام هذا البحث ذكر ثلاث عينات تونسية ذات علاقة غير سليمة مع اللغة العربية رغم انتمائها لفئات أكثر ترشحا للدفاع عنها.

فالمثال الأول يشير أن بعض سكان منطقة أوتيك في الشمال الشرقي التونسي يتبنون عرفا جديدا لتحاشي استعمال كلمة «أمي» العربية وتعويضها بكلمة «ماما» الفرنسية. يتمثل هذا العرف الجديد **الغريب** في التالي : يُطلب من صغار الأطفال أن يخاطبوا جداتهم بكلمة «أمي» وأمهاتهم بكلمة «ماما» ذات الإيحاءات الاستعمارية التي ترغب فيها أجيال الأمهات الشابة. وينطبق الشيء نفسه على مناداة الجد والأب. فينادي الأطفالُ أجدادهم بكلمة «بابا» وآباءهم الحقيقيين بكلمة «بابا» بالنطق الفرنسي. .papa. فيُنتظر أن يندثر استعمال كلمة أمي العربية للأم الحقيقية في العقود القليلة القادمة في معظم مناطق البلاد التونسية. وبالتأكيد يقترن أيضا مثل ذلك السلوك الاستعماري اللغوي بين أهل الريف بميلهم إلى **النظر بدونية وتحقير إلى لغتهم / العربية**.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

أما **المثال الثاني** فيبرزه ضُعف الكثيرين من أبناء وبنات معظم شيوخ جامع الزيتونة (مربط اللغة العربية والثقافة الإسلامية في المجتمع التونسي) في الانتساب إلى الهوية العربية الإسلامية. يمثل اليوم هذا الواقعَ أكثر من فرد من هؤلاء. ولنضرب مثلا لأحد أبناء أشهر الشيوخ الزيتونيين لفترة ما بعد الاستقلال وهو اليوم شخصية تونسية ناشطة سياسيًا في المجتمع التونسي بعد الثورة. فبالنسبة للغة العربية كقطب رئيسي من منظومة الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي ، فإن هذا الابن الذي غزته الثقافة الفرنسية لغة وفكرا ينادي بأن تصبح العامية التونسية اللغة الرسمية في المجتمع التونسي عوضا عن العربية الفصحى. وفي مثل هذا الموقف إشارة واضحة إلى الرغبة في **فصل الشعب التونسي عن الانتماء إلى العالم العربي**. أما بخصوص الانتماء للقطب الثاني للهوية العربية (الإسلام) فإن إجابة هذا الابن على سؤال (ما هي ديانتك؟) لإحدى القنوات الفرنسية تلقي أضواء كاشفة على مدى ضُعف انتسابه الإسلامي. لقد أجاب على ذلك السؤال: **ديانتي هي الديمقراطية**. يفيد هذان المثالان بأن الاستعمار اللغوي النفسي الثقافي الفرنسي ظاهرة عامة شاملة وكاسحة للتونسيات والتونسيين تمس حتى أعماق الأرياف التونسية وأبناء وبنات أبرز شيوخ جامع الزيتونة من فقهاء وعلماء في الثقافة الإسلامية.

أما **المثال الثالث** والأخير على ضُعف التحمس الكامل للغة العربية فنجده لدى التيارات الإسلامية التونسية. إذ تشير الملاحظات والمعطيات الميدانية أن تلك التيارات بأشكالها المختلفة تؤمن أكثر من معظم التيارات السياسية التونسية الأخرى **بالهوية العربية الإسلامية** للشعب التونسي المتمثلة في قطبيّها الرئيسيين: الدين الإسلامي واللغة العربية. وبالرغم من ذلك، فإن خطاب التيارات الإسلامية يعطي أولوية بارزة لقطب الدين الإسلامي في منظومة الهوية العربية الإسلامية ويكاد يتصرف مثل خطابات التيارات السياسية الأخرى التونسية نحو اللغة العربية. فكل تلك التيارات لم يعرف عن معظمها

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

بعد الثورة تصريحات ومواقف لصالح اللغة العربية لا في اجتماعات أحزابها ولجانها ولا في أحاديثها في المنابر التلفزيونية التي لا تحصى.ويمكن تفسير فتور موقف التيارات الإسلامية التونسية إزاء قطب اللغة العربية بسببين:

١ - مما لاشك فيه أن هذه التيارات متأثرة كثيرا أو قليلا بالحركات والتيارات الإسلامية المشرقية وفي طليعتها حركة الإخوان المسلمين. ففي المشرق العربي جاء التركيز الأول والأخير عندها على قطب الدين الإسلامي لأن استعمال اللغة العربية في الحياة العامة والخاصة هو المعمول به في حياة الأفراد والمؤسسات. وبعبارة أخرى، فالعلاقة السليمة بين هؤلاء واللغة العربية/الوطنية هي عمومًا أمر طبيعي في المجتمعات العربية المشرقية. ومن ثم، لا حاجة لتضمين قضية اللغة العربية في خطابات الحركات والتيارات الإسلامية في المشرق العربي.

٢ - غياب فهم الخصوصية التونسية والمغاربية بالنسبة لقطبيّ الهوية العربية الإسلامية. فثقل الاستعمار الفرنسي على قطب اللغة العربية في منظومة الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي واضح المعالم في الأمثلة المذكورة سابقا. يتطلب هذا الواقع اللغوي الخاص بالمجتمع التونسي من الإسلاميين التونسيين أن يولوا أهمية **كبيرة للقطب الثاني (اللغة العربية)** في منظومة الهوية العربية الإسلامية التي يجمع عليها التونسيات والتونسيون. وبعبارة أخرى، فالإسلاميون التونسيون مطالبون **بالتخلص مما** نسميه **رؤية الحَوَل** إلى قطبيّ الهوية العربية الإسلامية بحيث يصبحون واعين بضرورة النظر بكثير من التساوي إلى قطبيّ الهوية العربية الإسلامية للشعب التونسي. وبالنجاح في ذلك يكسبون رهان أمرين هامين: أ- يكونون قادة الطليعة للتونسيات والتونسيين في مسيرة التحرر من وزر الاستعمار اللغوي النفسي الفرنسي. ب- يحققون التوازن الضروري في التعامل بإنصاف مع قطبيّ الهوية العربية الإسلامية الأمر الذي يساعد على كسب الانسجام بين عنصريّ الهوية ويَحُولُ دون حدوث ظاهرة التصدع والنشوز في منظومة الهوية العربية التونسية للشعب التونسي.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

يمثل ذلك التصدع في قطب اللغة العربية في شخصية التونسية والتونسي **فتقا** في منظومة الهوية العربية الإسلامية لهما. فالفوز في كسب تماسك صلب لقطبيّ هذه الهوية يتطلب **رتقا عاجلا** لعنصريْ الهوية العربية الإسلامية (اللغة العربية والدين الإسلامي) ليس لدى التيارات الإسلامية التونسية فقط بل أيضا لدى معظم التيارات الحزبية والثقافية التونسية الأخرى التي تجمع على أن هوية الشعب التونسي هي في المقام الأول هوية عربية إسلامية بامتياز. إذ بدون هذا الرتق **لا ترتقي** أحداثُ ثورة ما بعد ٢٠١١/٠١/١٤ في المجتمع التونسي إلى ثورة حقيقية.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

الخاتمة:

يتجلى من طرح هذه الدراسة لوضع اللغة العربية اليوم في مجتمعات الوطن العربي ومن مجتمعات المغرب العربي على الخصوص أن **هناك بعض العبر أو الدروس** التي ينبغي تعلمها لإصلاح مشكلة اللغة العربية في تلك المجتمعات. نقتصر هنا على ذكر عدد محدود من تلك الدروس:

١. لا يكفي في تشخيص حال اللغة العربية الحديث فقط عن المستوى المتردي للمتعلمين العرب في هذه اللغة في النحو والصرف والفقر اللغوي وتركيب الجمل.... وإنما ينبغي إعطاء أولوية كبرى للعوامل النفسية والاجتماعية التي تعرقل مسيرة اللغة العربية قدما في مجتمعات الوطن العربي كما بينا ذلك في تحليلنا لوضع اللغة العربية في مجتمعات المغرب العربي في صفحات هذا البحث. فلهذه **المنهجية التكاملية** مشروعية حقيقية لفهم منظومة العوامل المتعددة التي تقف وراء الحالة غير السليمة للغة العربية في مجتمعاتها.

٢. للنهوض بمكانة اللغة العربية في المجتمعات العربية يجب مد التلميذ العربي مع نهاية المرحلة الثانوية والطالب العربي في الجامعة بما نسميه منظومة **المناعة اللغوية الثقافية**. ويعني هذا المفهوم أن يكون لهما تكوين متين في اللغة العربية والثقافة العربية الإسلامية.

٣. تفيد تجربة تعريب التعليم بعد الاستقلال ١٩٥٦ في المجتمع التونسي أن خريجي التعليم الثانوي الذين درسوا كل المواد/المقررات باللغة العربية ابتداء من المرحلة الابتدائية مرورا بالمرحلة الإعدادية وانتهاء بالمرحلة الثانوية يتصفون **باعتزاز كبير** باللغة العربية مقارنة بخريجي التعليم التونسي الثنائي اللغة [دراسة المواد بالعربية والفرنسية] الذين يتصفون **باعتزاز ضعيف** باللغة العربية. وهكذا يتجلى أن تعريب التعليم في المثال

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

التونسي هو **حل تربوي حاسم لصالح اللغة العربية**. وهذا هو السائد في نظم التعليم في المجتمعات المتقدمة التي تستعمل لغاتها في المقام الأول في التدريس من التعليم الابتدائي حتى المراحل الجامعية.

٤. تُعتبر معظم النظم التربوية في المجتمعات العربية المعاصرة الوحيدة في العالم التي تدرس بغير لغتها العلوم في جامعاتها ماعدا القليل منها مثل سوريا. وهو وضع يحرم تلك المجتمعات من **تطبيع علاقتها بالكامل** مع لغتها كما تفعل المجتمعات صاحبة السيادة اللغوية التامة في الشرق والغرب. وبعبارة أخرى، ينبغي النظر إلى انتشار اللغات الأجنبية في المجتمعات العربية على أنه استعمار لغوي إن كان حضوره يضر اللغة العربية على مستوييّ الاستعمال الشفوي والكتابي ويفقد المواطنة/ المواطن العربي الشعور النفسي القوي بعلاقة حميمة مع لغته العربية. إذ الانفتاح على اللغات الأخرى وتعلمها لا يعني تهميش أو إقصاء اللغات الوطنية في المجتمعات الملتزمة **بالمحافظة على سيادتها اللغوية مثل سيادتها على أرضها وحدودها**.

٥. أشرنا في متن هذا البحث إلى أن اللغة هي بطاقة تعريف لهويات الأفراد والمجتمعات. فرمي لغتنا العربية بالدونية والاحتقار، كما رأينا، يصيب الانتماء للهوية العربية بضرر بالغ. والارتباك أو التصدع في منظومة الهوية يمثل أزمة صارخة في صلب وجود الشعوب وبالتالي عائقا خطيرا على مسيرتها نحو التقدم الحقيقي والنهضة الواعدة. كل ذلك يعطي مشروعية كاملة **للتخلص في المجتمعات العربية من عقدة الشعور بمركب النقص** إذا لم نستعمل الانجليزية أو الفرنسية أو هما معا في تعاملنا مع بعضنا البعض كأفراد ومؤسسات. وهو سلوك لغوي لا نجده في المجتمعات صاحبة السيادة اللغوية الكاملة، لأنه بكل بساطة يمثل ما سميناه في هذه الدراسة بظاهرة **التخلف الآخر**.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

المراجع العربية

١. عبد العزيز، عبد المجيد (١٩٦١) اللغة العربية: أصولها النفسية وطرق تدريسها ، ناحية التحصيل (الجزء الأول)، القاهرة ، دار المعارف بمصر.

٢. لننهض بلغتنا: مشروع لاستشراف مستقبل اللغة العربية ، بيروت ، مؤسسة الفكر العربي ، ٢٠١٣.

٣. محمود، الذوادي (٢٠٠٦): الوجه الآخر للمجتمع التونسي الحديث ، تونس ، تبرالزمان.

٤. محمود، الذوادي (٢٠١٠) المقدمة في علم الاجتماع الثقافي برؤية عربية إسلامية ، بيروت ، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر.

٥. محمود الذّوادي (٢٠١٣) الازدواجية اللغوية الأمارة: ارتباك الهوية وتصدعها في المغرب والمشرق ، تونس ، تبر الزمان.

٦. محمود، الذوادي ، الفرونكوأراب الأنثوية بالمغرب العربي، **شؤون عربية**،١٩٨١.

٧. محمود، الذوادي، الفرنكوأراب الأنثوية المغاربية كسلوك احتجاجي على انعدام المساواة مع الرجل وكرمز لكسب رهان الحداثة ، **دراسات عربية** ، العدد ¾ كانون الثاني/شباط ١٩٩٦.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

المراجع الأجنبية

1. Chomsky, N (1975) **Reflections on Language**, New York, Pantheon Books.
2. Davidson, I. & Noble, W (1989) The archaeology of perception: Traces of depiction and language, **Current Anthropology**, 30, 125-156.
3. Dhaouadi, M.(2002) **Globalization of the Other Underdevelopment: Third World Cultural Identities**, Kuala Lumpur, A.S.Noordeen, 2002.
4. Dhaouadi, M, Arab Cultural Concepts for Cultural Sociology, **Contemporary Arab Affairs**, Vol.I, No.1, January 2008, pp.76-82.
5. Dhaouadi, M (2010) **L'univers des symboles humains: L'Autre sous-développement au Maghreb et au Tiers-monde**, Tunis, l'Or du Temps.
6. Dhaouadi, M (2013) **Cultural Sociology within Innovative Treatise : Islamic Insights on Human Symbols**, Lanham, University Press of America, Inc.
7. Pinker, S.(1995) **the Language Instinct: How the Mind Creates Language**, New York, Harper Perennial, A Division of Harper Collins Publishers.

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولايسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

الفهرس

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً

هذه الطبعة
إهداء من المركز
ولا يسمح بنشرها ورقياً
أو تداولها تجارياً